الله أعلم حيث يجعل رسالته

للأستاذ محمد محمد المدني

لا يكفي لنجاح أي نظام من النظم ولا لتمام أي برنامج من البرامج أن يكون هذا النظام قوياً، أو يكون هذا البرنامج صالحاً، فكم من نظم قوية، وكم من مبادىء سليمة، وكم من برامج صالحة، صرعها الدهر وعفّى عليها الزمان! ولكن أهم ما توطد به دعائم الإصلاح أن يُعهد بالإصلاح إلى منفذين صالحين يفقهونه ويدركون أسراره ويعرفون مراميه وأغراضه، وتساعدهم صفاتهم وطبيعة نفوسهم على تحمل تكاليفه، والنهوض بتبعاته.

لذلك قضت حكمة الله، وقد طبع شريعته الخالدة بطابع الوضوح والصفاء واليسر والرحمة، أن يختار لها منفذاً ومطبقاً يكون له من الصفات النفسية ما لا يتنافر مع هذه الطبيعة، بل ما يستطيع به أن يجاري روحها ويمضي على سننها، وينفذ إلى صميمها، فاختار لها «محمداً» صلى الله عليه وسلم، و«الله أعلم حيث يجعل رسالته».

* * *

تمتاز هذه الشريعة بالصفاء والوضوح والصراحة في مواجهة شؤون الحياة، وبجانبة التعقيد والتكلف في كل شيء:

عقيدة سهلة لا تستدعي من العاقل أكثر من النظر في ملكوت السموات والأرض، بل لا تستدعي منه أكثر من النظر في نفسه ليعلم أن له إلهاً قادراً حكيماً مبدعاً أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. عقيدة واضحة يدركها العامة والخاصة في كل زمان، وليست في حاجة إلى فلسفة المتفلسفين، ولا إلى تكلف المتكلفين، لأنها «فطرة الله التي فطر الناس عليها».

عقيدة تفتح أمام صاحبها آفاق الحياة، وتجعله واثقاً من نفسه، غير مستعين إلا بخالقه، لا يعرف الخضوع والذل إلا لله الذي لا رب سواه.

وأحكام قوامها العدل والرحمة والتيسير على الناس، وبث روح التعاون فيهم، واقتلاع أسباب الشر والخصومة من بينهم، وتهيئة الحياة السعيدة لهم.

هذا الطابع الذي تمتاز به الشريعة الإسلامية، والذي هو مزاج من الصفاء والوضوح، والسهولة والتيسير، والرحمة والعدل، والصراحة في مواجهة شؤون الحياة، ومجانبة التعقيد والتكلف في كل شيء هو بعينه الطابع الذي طبع الله نبيه ومصطفاه: نفس صافية. مزاج سليم. قلب رحيم. لسان عف صدوق. صراحة في مواجهة شؤون الحياة. بغض شديد للنفاق والمنافقين. ترفع عن أساليب الختل والمواربة والخداع والدوران حول الأمور. تصرف عادل رحيم يبعث على الثقة، ويوحي بالطمأنينة، ويغري بالقدوة، ويحمل على الحب والإجلال!

كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

كان صافي النفس، وقد ظهر أثر هذا الصفاء في نواح متعددة من خلقه الكريم: فهو لا يحمل الحقد لأحد، ولا يحب أن يفسد عليه أحد هذا الصفاء النفسي فيقول: «لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم سليم الصدر».

وهو طبيعي في صلاته بأصحابه يمازحهم ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذرين، ويبدأ من لقيه بالسلام والمصافحة، ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم إليهم، ولا يقطع على أحد حديثه، وما

دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال له لبيك !

وكان يكره التكلف ، وينهى عن التشدد والتزمت ، ويأخذ العفو ويأمر بالعرف ويخفض جناحه للمؤمنين ، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل الناس بالتي هي أحسن ، ويميل إلى اليسر والسهولة في كل شيء : ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، وما سئل شيئاً عنده إلا أعطاه ، وما انتقم لنفسه قط ، وما نهر خادما ولا مملوكا » .

وكان سهلا إذا أخذ ، وسهلا إذا أعطى ، متلطفا في ضروب الإحسان : يقترض فيرد أكثر مما اقترض ، ويشترى فيعطى أكثر من الثمن ، ويقبل الهدية ويكافىء عليها بأضعافها ، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر ، وكانت الصدقة أحب شيء إليه ، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه . وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه تارة بطعامه ، وتارة بلباسه ، وكان من خالطه وصحبه ورأى هديه لا يملك نفسه من السماحة والندى .

ولقد ظهرت آثار هذه الصفات الشريفة في سائر أحواله وتصرفاته صلى الله عليه وسلم ؛ وظهرت في سياسته الحكيمة التي ساس بها قومه ، وجعلها نهجا للحكام والرؤساء من بعده . وظهرت في تطبيقه لكتاب الله ، وتنفيذه لأحكامه . وظهرت فيما أوصى به أمته مما يتصل بالعبادات أو المعاملات أو الأخلاق :

سامه أعداؤه سوء العذاب ، واضطهدوه في نفسه وفي أصحابه ، ورموه بكل منكر من القول وزور ، وكانوا يضعون في طريقه الأشواك والأقذار ، ويطرحون عليه وهو يصلي جلود الأبل والبقر ؛ ويمنعونه وأصحابه أن يبيعوا لأحد شيئاً أو يبتاعوا ، بل كانوا يتآمرون عليهم ، ويدبرون المكائد لهم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلقى ذلك كله منهم صابراً محتسباً نقيّ الصدر من الحفيظة ، سليم القلب من الموجدة ؛ بل كان يلقاه بالدعاء لهم فيقول (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون !)

ولقد خضبوا وجهه بدمه ، وكسروا رباعيته ، وهو مع ذلك لا يدعو عليهم ، ولا يسأل الله تعذيبهم . ويقول : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً » .

ولقد أخرجوه من مكة وطنه الحبيب إلى قلبه ؛ وأخرجوا معه كل من اعتنق دينه ، فلما أظفره الله بهم وفتح له مكة حطم أصنامها ، وأزال أوثانها ثم خطب أهلها فقال : « يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم. قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ولقد كان الرجل من العرب الجفاة الغلاظ يدخل عليه غير مستأذن ، وينادي باسمه مجرداً يسأله عن شيء أو يقتضيه حقاً ، فيحلم عليه ويجيبه متلطفا في خطابه ، قاضيا حقه ، فإذا غضب له أحد من أصحابه رده عن غضبه ، وهدأ من ثورته . وقد أفضت هذه السياسة الرشيدة بكثير من أهل الكفر إلى الإسلام ، وأصبحوا بها من خيار المؤمنين !

وكان صلى الله عليه وسلم نعم المعلم لأصحابه : يردهم إذا أخطأوا في رفق وأناة ، ولا يعنف عليهم ، ولا يؤنبهم ، بل يبتسم لهم ، ويبش في وجوههم . حدث معاوية بن الحكم السلمي قال : كنت أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعطس رجل من القوم ، ولم أكن أعرف أن الكلام يفسد الصلاة ، فقلت له : يرحمك الله ! فرماني القوم بأبصارهم يتعجبون مما فعلت ، فقلت : واثكل أماه ! ما شأنكم تنظرون إليّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم وينظرون إليّ متعجبين ، فلما رأيتهم كذلك سكتّ حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته ، فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ! فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني ولكن قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس . إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفق حتى على أهل الكبائر من أمته ، وقد أقام الحد على رجل فمات فلعنه الناس وسبوه ، فقال لهم : لا تلعنوه ولكن قولوا : اللهم اغفر له. اللهم ارحمه ! وكان رجل يؤتى به إليه كثيراً وهو سكران بعد تحريم الخمر فلعنه الناس مرة فقال : لا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله . فكشف لهم عما يعرفه من حقيقة نفسه ودخيلة قلبه لما رفضوه لظاهر فعله ، وإنما ينظر الله إلى القلوب !

وجاءه مرة رجل وهو يصلي ، فلما انتهى من صلاته قال له : يا رسول الله . إني أصبت حداً فأقمه عليّ ، فسكت عنه ، ثم عاوده

الرجل بعد حين فقال له مثل ما قال فسكت عنه ، ثم عاد إليه بعد صلاة الغداة فقال له : يارسول له إني أصبت حداً فأقمه عليّ . فقال له : أصليت معنا هذه الصلاة ؟ قال : نعم . قال : فاذهب فإن الله غفر لك حدك !

وليس ذلك تهاوناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحدود، وحاشاه ، وهو القائل في حادثة المخزومية التي سرقت وشفع لها أسامة : « والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ! » وإنما ذلك رجل قد تاب قبل أن يعلم به أحد ، أو يقدر عليه أحد ، ومن تاب تاب الله عليه « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رفيقاً بأهله ، سهلا في معاشرتهم : روى أنه كان يسرب إلى عائشة بعض بنات الأنصار يلعبن معها . ومر يوما جماعة من أهل الحبشة يلعبون ، فقال : ياعائشة تعالي فانظري! فقامت فوضعت لحيها على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلت تنظر إليهم في سرور واهتمام ، ثم قال لها : أما شبعت ؟ أما شبعت ؟ وهي تقول له : لا ، انتظر.. انتظر ! . .

ومن آثار صفائه النفسي وفاؤه صلى الله عليه وسلم ، فهو لا يعرف الغدر ولا النكث ولا التنكر مع الزمان ، لأنه لا يتقلب مع النفعة ، ولا تبطره النعمة :

كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عهد ، فأرسلوا إليه رجلا منهم يفاوضه في أمر من الأمور ، وهو أبو رافع ، فلما رآه وحدثه أخذته عظمته وراعه حديثه ، وألقى الله في قلبه الميل إلى الإسلام ، وحينئذ نسي الرجل أنه سفير لقومه ، وأنه جاء للمفاوضة عنهم ، فتوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال له في لهجة ضارعة : يا رسول الله ! لا أحب أن أرجع إليهم فأبقني عندك ! فماذا فعل الرسول ؟ هل نسي عهده الذي بينه وبين المشركين ؟ كلا . ولكنه قال : لا . لا . إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البُرُد ، ولكن ارجع إليهم فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع إلينا . قال أبو رافع : فذهبت ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا صدوقا لم يُعرف عنه أنه كذب مرة واحدة في حياته لا قبل مبعثه ولا بعد مبعثه ، ولذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين ويرضون حكمه ، وينزلون على قضائه .

إن الكذب علامة من علامات النفاق ، والنفاق لا يكون من أخلاق العظماء ، ولا يخالط نفوس الأباة الشرفاء، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إني مسلم : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتمن خان » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره أن يشدد على أمته ويسأل الله دائما التخفيف عنهم ، وكان يوصي أصحابه بألا يكثروا من سؤاله لئلا يشددوا على أنفسهم ، ويقول « أعظم الناس جرما من سأل عن شيء لم يكن حراما فحرم على الناس» ويقول «دعوني ما تركتكم . إنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يقصد إلى تعذيب نفسه وحرمانها من طيبات الحياة كما يفعل المتشددون الذين يتكلفون الزهد والورع قصداً إلى الشهرة بالصلاح ، وإنما كان يأكل الطيب إذا وجده ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويعجبه لحم الذراع ، ويستعذب له الماء .

وكان يأمر بالتبشير ، ويكره التنفير . وقد بعث معاذا وابنه إلى اليمن فقال لهما : « بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا » .

وكان يكره المبالغة في العبادة بما يشق على النفس ، وقد دخل المسجد مرة فوجد حبلاً ممدوداً بين ساريتين فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا حبل لزينب : تصلي فإذا كسلت أو فترت أمسكت به ! فقال : لا . حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه ، فإذا كسل أو فتر قعد .

وقال لأحد أصحابه « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إليك دين الله . فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

وقد نزه الله رسوله الكريم حتى قبل بعثته عن كل ما كان يأتيه أهل الجاهلية من المباذل والمفاسد ، وفي ذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به إلا مرتين . كل ذلك يحول الله بيني وبين

ما أريد ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته : قلت ليلة لغلام كان يرعى معي : لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمُر كما يسمر الشباب . فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة فسمعت عزفا بالدفوف والمزامير فجلستُ أنظر وأسمع ، ولكن النوم غلبني فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت ولم أقض شيئا ، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك ، ثم لم أهم بعدهما بسوء ! » .

لهذه الخلال وأمثالها فطنت خديجة رضي الله عنها ، فلما جاءه الملك لأول مرة بالوحي ، وذهب إلى بيتها يقص عليها ما رأى ، ويذكر لها ما يساوره من خوف على نفسه ، قالت له : « كلا ، والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » عرفت من شريف صفاته ما اتخذته دليلا على نجاحه في مستقبل حياته .

* * *

هذه دروس وعبر وآيات بينات تشرق واضحة في سيرة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وتدل على خلاله الكريمة التي وافقت بها طبيعته طبيعة دعوته ، فيها ما يفيد الناس جميعاً على اختلاف مراتبهم ، وفيها ما يفيد العظماء والمصلحين بوجه خاص .

إنها تقول بلسان فصيح :

يادعاة الإصلاح : ليس الإصلاح أقوالا تقال ، ولا مذكرات تكتب ، ولا مبادىء ترسم ، لتُخطفَ بها الأبصار ، وتُزلفَ القلوب ، وتُقضَى على حساب ذلك اللُّبانات . إنما الإصلاح أفعال تتحقق بها الأقوال . إنما هو تنفيذ حازم لما رسم من الخطط وضع من البرامج . إنما هو مُثُل تضرب للناس يبدو فيها الإخلاص لله ، والإيمان بالدعوة ، والغيرة على الفكرة ، والفناء في سبيل المبدأ .

« يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون »

أسأل الله أن يعمر قلوبنا بالإخلاص ، وأن يشرح صدورنا للحق ، وأن يفتح لهَدْي الرسول أبصارنا ، ويتير به بصائرنا . إنه على ما يشاء قدير .

محمد محمد المدني

تقدم

محمد رسول الله

تأليف

مولاى محمد على

ترجمة

الأستاذ مصطفى فهمى

يطلب من

مكتبة مصر بشارع الفجالة بمصر

الثمن ١٥ قرشا ويطلب في فلسطين من مكتبة الظاهر الخوان ، وفي لبنان من المكتبة الأهلية وفي العراق من مكتبة المعارف